

أثر نهج البلاغة في أدب العرب

• د. هادي عبد علي هويدي

كلية الدراسات الإسلامية / جامعة الكوفة

الشجر
البلاغة
القرصة



قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الجزع أتعب من الصبر».

نهج البلاغة كتاب تضمن ما اختاره الشريف الرضي (رحمه الله) (٣٥٩هـ - ٤٠٤هـ)^(١) من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) وعليّ غني عن التعريف. قيل فيه^(٢):
(اجتمع للإمام علي بن أبي طالب من صفات الكمال، ومحمود الشمائل والخلال وسناء الحسب، وباذخ الشرف، مع الفطرة النقية، والنفس المرضية ما لم يتهيأ لغيره من أفاذ الرجال... تحدر من أكرم المناسب، وانتمى إلى أطيب الأعراق، فأبوه أبو طالب عظيم المشيخة من قريش، وجده عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء، ثم هو قبل ذلك كم هامات بني هاشم وأعيانهم، وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ (ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلي العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، وينبوع العلم...).

أخلاقه وسيرته وشجاعته لا تتأتى لأحد سواه باستثناء الرسول الكريم صلوات الله عليه، ذلك ما جعل الناس يطلقون فيه أفضل الكلام، من ذلك ما قاله الحسن البصري^(٣): (... كان سمهما صائباً من مرامي الله على عدوه، ورباني هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها، وذا قرابتها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكن بالنؤومة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائم ففاز منه برياض موقنة، وأعلام مشرقة...).

أما بلاغته وفصاحته فلسنا بقادرين أن نقول فيه أكثر مما قاله معاوية^(٤): (والله ما سن الفصاحة لقريش غيره).

فالذي يحفظ كلام علي (عليه السلام)

فإنه يحتفظ بأثمن الكلام وأبلغه وأفصحه لهذا وجدنا الناس تحفظه وترويه منذ القدم قال المسعودي (ت ٢٤٦هـ).

(والذي حفظه الناس عنه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة وتداول الناس ذلك قولاً وعملاً)^(٥).

وذكر الحصري ما قاله الجاحظ في الإمام علي (عليه السلام) في قوله: (قيمة كل امرئ ما يحسنه)^(٦): (ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هذه الكلمة في كتاب البيان فقال: فإذا لم نقف من هذا الباب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية ومجزية مغنية، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية غير مقصرة عن الغاية، وأفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه ظاهراً في لفظه وكأن الله ألبسه من ثياب الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله...).

ولهذا صارت كلماته (عليه السلام) أمثلة ومعاني للشعراء والكتاب على مر الزمن يستلهمونها ويضمنونها أدبهم وشعرهم. روى ابن أبي الحديد قول الإمام^(٧):
(من وثق بماء لم يظمأ) قال وهذا كقول المتنبى^(٨):

وما صباية مشتاق على أمل

من اللقاء كمشتاق بلا أمل

وكان الأجدر أن يقول: أخذ المتنبى هذا المعنى من علي (عليه السلام)...

وللسبب نفسه صار كلام الإمام موضع اهتمام الناس والعلماء والأدباء جميعاً وصار مدرسة للأدباء والمتأدبين فقد روي عن عبد الحميد الكاتب قوله^(٩):

(حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلح

ففاضت ثم فاضت).

واحة الأدب

- (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١ / ١، ٤٠ / ١.
- (٢) شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ٢ / ١، وينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (مقدمة المحقق ١ / ٤ - ٤).
- (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥ / ١.
- (٤) نفسه: ٣ / ٢١٧.
- وينظر: مصادر نهج البلاغة للسيد عبد الزهراء الحسيني ١ / ٤٣ وقد ذكرها: (قال معاوية بن أبي سفيان: ما رأيت أحداً يخطب ليس محمداً أحسن من علي، والله ما سن الفصاحة لقريش غيره).
- (٥) مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٤٣١.
- (٦) زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني ت. د. زكي مبارك ١ / ٨٠، وينظر: البيان والتبيين ت. عبد السلام هارون ١ / ٨٣.
- (٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢١١.
- (٨) ديوان المتنبّي ٣ / ١٩٩.
- (٩) نهج البلاغة ... لمن؟ للشيخ محمد حسن آل ياسين ص ١٣.
- (١٠) نفسه: ص ١٣.
- (١١) ينظر مصادر نهج البلاغة، عبد الزهراء الحسيني ١ / ٢٩ - ٤١، وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ محمد حسن آل ياسين ذكرها مائة وواحد وأشار إلى اعتماد المصدر نفسه ولعله وجده في طبعة أخرى من الكتاب، انظر: نهج البلاغة... لمن، ص ١٢.
- (١٢) مصادر نهج البلاغة، ١ / ٤١ - ٤٢.
- (١٣) نفسه ١ / ٣٠، ووفاة الشيخ المفيد سنة ٤١٣ هـ.

ويقول ابن نباتة^(١٠): (حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيد الإنفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب).

وسار كلام الإمام في الناس فمن المحفوظ في الصدور إلى التدوين، فقد ورد أن المصادر التي وجدت فيها خطب الإمام عند قيام الشريف الرضي بجمعها فضلاً عن المحفوظ بلغت مائة واثنى عشر كتاباً ينتمي زمن تأليفها إلى ما قبل عصر الشريف الرضي^(١١) مع الإشارة إلى ما ذكره الشريف من هذه المصادر وهي خمسة عشر مصدراً ورواية^(١٢) وقد أثبت الباحث نفسه أن وفيات معظم مؤلفي هذه المصادر سابقة لعصر الشريف ويمكن أن نقرر سبقهم له من خلال ذكر أخذ أساتذته وقد عاش بعد وفاة الشريف وهو الشيخ المفيد (رحمه الله) قال^(١٣):

(والمفيد توفي بعد الشريف الرضي ولكننا جعلنا جملة من كتبه من مصادر نهج البلاغة لأمرين:

١- أن المفيد من أساتذة الرضي فقد جرت العادة أن يأخذ التلاميذ من مشايخهم ولا يأخذ المشايخ من تلامذتهم.

٢- أن المفيد لم ينقل في كتبه من (نهج البلاغة) ولا رواية واحدة، بل لم يشر إليه ولا مرة واحدة في كل هذه الكتب التي نقلنا منها وهي أكثرها ألف قبل صدور النهج).

كل هذه الأدلة تنفي الشبهات التي تدور حول هذا العمل وتجعل منه مصدراً مهماً من مصادر نقل أدب العرب إلى جانب القرآن الكريم والسنة النبوية اللذين يعدان منارة للأدباء في المعاني والأفكار فضلاً عن اللغة الأدبية المشرقة ■

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ